في مسيرة الحياة.. الأبعاد والمنهج

■■ مدخل

يطلق مصطلح «الترجمة» أو «السيرة» على ما يتناول التعريف بحياة شخصية معينة، تعريفا يطول أو يقصر، ويتعمق أو يبدو على السطح، تبعا لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة، وتبعا لثقافة المترجم ــ أي كاتب الترجمة ــ ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة، من مجموع المعارف والمعلومات، التي تجمعت لديه عن المترجَم له(١).

وتنقسم الترجمة بالمفهوم السابق إلى نوعين مشهورين :

١ ــ الترجمة الغيرية : BIOGRAPHY

وهي التي تعرض سيرة الآخر(٢)

ومن نماذجها في القديم : «مناقب أحمد بن حنبل» لابن الجوزي، و«النوادر السلطانية» لابن شداد، وهو في سيرة صلاح الدين الأيوبي(٣).

وفي الحديث : «حياة أبي بكر الصديق»، «الفاروق عمر»، «عثمان بن عفان» للدكتور محمد حسين هيكل، وعبقريات العقاد، و«الإمام مالك» لأمين الخولي، و«أبوالعلاء المعري» لبنت الشاطيء، و«أبوالطيب المتنبي» لعبدالوهاب عزام.

٢ ــ الترجمة أو السيرة الذاتية أو الشخصية : AUTOBIOGRAPHY

وهي التي تعرض حياة الشخص نفسه بقلمه، وفيها يكشف الكاتب عن ملامحه، وسيرورة حياته، وطبيعة علائقه مع الآخرين.

ومن نماذجها في القديم: ترجمة ابن خلدون بقلمه(٤)، وسيرة أسامة بن منقذ في «الاعتبار»(٥). و«المنقذ من الضلال» للغزالي،

وفي الحديث: «حياتي» لأحمد أمين، وتربية سلامة موسى، وترجمة أحمد شوقي بقلمه، في الطبعة الأولى من الجزء الأول من الشوقيات، و«الأيام» لطه حسين.

ويذهب الدكتور يحيى إبراهيم إلى أن الترجمة الذاتية الفنية ليست هي التي يكتبها صاحبها على شكل مذكرات، يُعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتي. وكذلك ما كان «ذكريات» تأخذ هذا الطابع، أو «يوميات» تأتي فيها الأحداث على نحو غير رتيب، وكذلك ما جاء على شكل اعترافات أو رواية فنية(٦).

ولكن هذا الرأي فيه تشدد بالغ؛ لأنه يعد حجرا على حرية الأديب، فمن حقه أن يختار الشكل أو القالب الفني الذي يراه ملائما، فيكتب ترجمته في شكل حكائي، أو في شكل مذكرات أو اعترفات.

والدكتور يحيى ابراهيم نفسه عاد فاعتبر «اعترافات القديس أوغسطين» أشهر التراجم الذاتية في القرون الوسطى(٧). وتعتبر «اعترافات جان جاك روسو» من أشهر التراجم الذاتية في التاريخ، وفيها نرى حظا وافرا للبيئة والمجتمع والكنيسة ورجال الدين.

واهتمام كاتب السيرة الذاتية بالأحداث العامة، وتيارات البيئة لايضعف من بنائها، ولاينال من فنيتها؛ فهذا الاهتمام يمثل بصدق مدى إحساس الكاتب بالجو الذي يعيش فيه، واستجابته، أو تمرده عليه، أي موقفه من عصره بيئة وزمنا.

ومن يستطيع أن ينكر تلك الترجمة الذاتية التي سجلها، أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار»، وهو مذكرات بديعة تصور لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين، كما تصور حياة المسلمين لعصره، وحياة الصليبيين أنفسهم، وهو تصوير أمين دقيق، تسوده روح الإنصاف والعدل، فيذكر مالهم وما عليهم(٨).

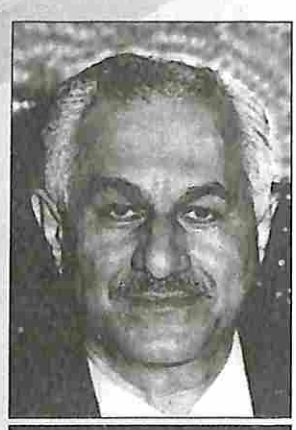

بقلم الدكتور:
جابر قميحة

ومن فضول القول أن نذكر في هذا المقام أن الكاتب لا يستطيع أن يصور ملامحه الذاتية، وخصائصه النفسية والعقلية والخلقية، وقيمه التي يؤمن بها، إلا في ظل البيئة التي يمثل هو نقطة سابحة في سمائها، أو نبتة ناجمة في أرضها، وخصوصا إذا كانت أحداث عصره من الوقائع المتوهجة الجسيمة التي غيرت مجرى التاريخ، أو تركت بصماتها غائرة على صفحته.

وليس المهم أن نتساءل: أي الجانبين أغلب: تصوير الذات، أو تصوير الأحداث والتيارات الاجتماعية وماشابهها، بل المهم أن يحدد الكاتب مكانه في زحمة هذه الأحداث، وتلك التيارات، ومدى تفاعله معها تأثرا وتأثيرا، واستجابة أو تمردا ومعارضة، بحيث تكون شخصيته هي نقطة الارتكاز. فلا يقاس حظ كاتب السيرة، وحظ البيئة قياسا كميا، بل يبحث في السيرة عن الأبعاد والأعماق، ومدى إحساس الكاتب، وصدقه فيما كتب. بحيث لاتبتلعه الأحداث، فتتحول الترجمة إلى تاريخ محض(٩).

وفيما يأتي: نسير مع مسيرة الشيخ، ونلقي عليها نظرات فاحصة؛ للتعرف على أبعادها وملامحها، ابتداء من التعرف على الدوافع التي حدت به إلى ترجمة ذاته، ثم المساحات التي غطتها السيرة زمانا ومكانا، والعلائق التي تربط بينها وبين الرحلات التي قام بها الشيخ.

وأخيرا نتعرف على المنهج الذى آثره الشيخ، وأهم خطوطه وملامحه. وإلى أي مدى وفقت المسيرة في تصوير شخصية كاتبها، وشخصيات الآخرين، وكذلك أبعاد البيئة والعصر. وأهم الملامح الفنية في التصوير والتعبير:

■■ الدوافع والبواعث:

كتب الشيخ أبوالحسن عددا كبيرا من الكتب، في التاريخ والسير، والعقائد والعبادات، والأدب، ولم يجد حرجا في ماكتب، ولكنه عندما فكر وشرع في كتابة سيرته الذاتية استبد به ـ كما يقول ـ «صراع عقلي، وتردد نفسي»، وقد مضت أعوام، وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى، متهيبا الخوض في هذا الموضوع، والإقدام على الكتابة فيه(١٠) وقد لخص أسباب التهيب والإحجام فيما يأتي:

١ ــ إيمانه بالحكمة المأثورة «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه»، وفي ضوئها كان يستصغر نفسه في مجال التنويه بها.. فهو لم يكن يوما سياسيا بارزا، ولا قائدا محنكا، ولا صاحب شهره، وجاه عريض حتى يسوغ له التأليف عن نفسه.

٢ ــ خشيته ــ وهو يكتب عن نفسه ــ من الغرور وخداع النفس، وخشيته من الإساءة إلى الشخصيات التي يكتب عنها في تضاعيف سيرته، بالتقصير في تقييمهم، أو الإفراط في

مدحهم والثناء عليهم.

٣ ــ ما يتوقعه من ضرورة التعرض ــ في سيرته الذاتية ــ للحركات والأوضاع والعقائد الأخرى في بيئته، وذلك قد يثير حساسيات زائدة شديدة، هو في غنى عن إثارتها.

٤ ــ شعوره بأنه ــ إن كتب سيرته ــ إنما يقدم على «بدعة تأليفية». ورسالته تقتضيه إنفاق وقته في التأليف عن المصلحين والمجددين والصالحين، وإبراز مآثرهم، وليس في إطراء نفسه والتنويه بشخصه(١١).

ونلاحظ أن هذه العوامل المثبطة التي تشده إلى الإحجام عن كتابة سيرته الذاتية نابعة مما عرف عنه من مكارم الأخلاق في التواضع، وعفة القلم واللسان، وحسن التعامل مع الآخرين، ومعرفة أقدارهم.

■■■

لكن عوامل الإحجام لم تصمد أمام عوامل إقدام، كان لها قوتها الدافعة، التي حفزت الشيخ إلى البدء في كتابة سيرته الذاتية، في نهاية سنة ١٩٨٢. وخلاصة هذه العوامل:

١ ــ اقتناعه بالدور التربوي والخلقي، الذي يمكن أن تؤديه سيرته الذاتية، من تجارب ومعاناة، ودروس وعبر، تدفع للعلو والطموح، وتقوي الإيمان والعزيمة.

٢ ــ إيمانه بأن هناك كثيرا من الموضوعات، والأحداث والوقائع، والمؤسات والحركات، والشخصيات والجماعات، وتصوير البيئة والأعراف، ونظام التربية السائد في البيوتات، لايتيسر الحديث عنها إلا في تضاعيف قصة حياته، ورحلة عمره. وإلقاء الضوء على واحد منها مستقلا يحتاج إلى مجدات، ولكن بالسيرة الذاتية تتحول حياة الفرد إلى صورة صادقة ناطقة لعهده، ومذكرة حية له، وقد يعثر فيها المؤلف والمؤرخ على تلك المواد المفيدة الضرورية، التي لايجدها في كتب التاريخ العرفي التقليدي.

٣ ــ وقوعه على كتب راقية في السيرة الذاتية لكبار من أساتذته ومشايخه الموقرين وهم: شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني، وشيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي، والأستاذ الأديب الشيخ عبدالماجد الديابادي.

وهذه النماذج الثلاثة الطيبة، جعلته يخلع عن ذهنه فكرة كان يعتنقها من قبل، وهي أن كتابة السيرة الذاتية يعد بدعة تأليفية. وحتى لو صح ذلك فهي ــ كما يقول «بدعة حسنة»(١٢).

٤ ــ وثمة عامل قد يبدو هامشيا إذا قيس بالعوامل السابقة، ولكن ذلك لايسلبه تأثيره وفاعليته، وهو أن الشيخ وجد لأسباب طبية فرصة الفراغ والاستجمام لمدة محدودة، حيث لم يكن يستطيع ــ لبعده عن مقره ومكتبته ــ أن يشتغل بعمل تأليفي كبير، لأنه يحتاج إلى الرجوع إلى كتبه ومصادره، فاضطر إلى شغل هذا الفراغ بالبدء في كتابة سيرته الذاتية، وهي تعتمد أساسا على الذاكرة، وإعمال العقل، واجترار التجارب والمواقف الشخصية، واستخلاص التجارب والعبر.

٥ ــ وهناك دافع قوي لمواصلة الشيخ كتابة سيرته الذاتية بعد أن عزم على إنهاء هذه السيرة بالجزء الثاني، هو إلحاح إخوانه ومحبيه من ناحية، وكثرة الأحداث والمحن والفتن بعد انتهائه من الجزء الثاني، مما يخشى معه إغفال الكتاب والمؤرخين لها من ناحية أخرى، فجعل الشيخ من الجزء

■■ إلحاح إخوانه ومحبيه من ناحية، وكثرة الأحداث والمحن والفتن بعد انتهائه من الجزء الثاني.. كانت دافعاً قوياً لمواصلة الشيخ كتابة سيرته الذاتية.

الثالث وعاء يحفظ هذه الأحداث، وهو يبدأ بذكريات عام ١٩٨٨، وينتهي بذكريات عام ١٩٩٣(١٣).

■■ مسرح الحياة:

●● المساحة الزمنية:

بين يدي ــ كما ألمحت آنفا ــ ثلاثة أجزاء جاءت في ألف صفحة تقريبا، تحمل عنوان «في مسيرة الحياة» للشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله، وهي تغطي قرابة قرن من الزمان: ابتداء من حديثه عن أسرته في مطلع القرن العشرين الميلادي، وامتدادا إلى أواخر عام ١٩٩٣م. وإن كان قد استهل الجزء الأول من المسيرة بحديث موجز عن جذورها حيث ينتهي نسبها إلى محمد ذي النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن المثني بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لذلك اشتهرت الأسرة بالحسنية(١٤).

وهذه الأجزاء الثلاثة تتسع لعمره الزمني إلى ما قبل وفاته بست سنين. ولكن علينا ــ في هذا المقام ــ أن نذكر أن هذا الكتاب بكل أجزائه ــ وإن حمل عنوان سيرته الذاتية ــ لايستقل بهذه السيرة، بل يشترك معه بالإضافة والتفصيل، والشرح والتبيين كتبه في الرحلات التي قام بها في مشارق الأرض ومغاربها، ومن أهمها: مذكرات سائح في الشرق العربي ــ من نهر كابل إلى نهر اليرموك ــ أسبوعان في المغرب الأقصى ــ نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان ــ أحاديث صريحة في أمريكا.

وتمتد المسيرة الزمانية لتعرض مرحلة الطفولة والصبا والشباب، وسنوات التعلم والتعليم، والقيام بواجب الدعوة على النطاقين: المحلي والعالمي، وكذلك رحلات الحج والتدريس، والرحلات الدعوية والمؤتمرات الدينية والأدبية.

●● المساحة المكانية:

ولو قلنا إن العالم كله كان مسرحا لهذه الحياة المديدة العريضة لما أبعدنا. ومن الصعب أن يعثر الدارس على شخصية في العصر الحديث، لها من الأسفار والرحلات الدعوية والتعليمية والدينية مثل ما لأبي الحسن الندوي رحمه الله.

فزيادة على تنقلاته بين عشرات من المدن والقرى الهندية، كان له أسفار ورحلات إلى الحجاز ومصر، والسودان، ودمشق، وبيت المقدس، والخليل، والأردن، ولبنان، والكويت، وقطر، وإمارات الخليج، واليمن، والعراق، والمغرب، والجزائر، وباكستان، وبنجلاديش، وسمرقند، وبخاري، وطشقند، وبورما.

وكذلك كان له أسفار إلى مدن أوروبية كثيرة منها: جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن، وكمبردج، وأكسفورد، وجلاسكو، ومانشستر، وشفيلد، وليدز، ومدريد، وطليطلة، وأشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، وأغلب مدن أمريكا الشمالية وكندا(١٥).

ونلاحظ على هذه الأسفار أمرين:

الأول: أن من هذه البلاد ماقام صاحب السيرة بزيارته أكثر من مرة، وخصوصا بلاد الحجاز كالمدينة ومكة وجدة، والإمارات العربية.

والثاني: أن هذه الرحلات ــ في أغلبها ــ كانت لأسباب دعوية أو علمية، برغبة صاحب السيرة ابتداء، أو استجابة لدعوات من جهات رسمية أو شعبية؛ لحضور مؤتمرات، أو إلقاء محاضرات عامة أو محاضرات متخصصة على مستوى الجامعات.

وهذا الامتداد المكاني لرجل عقيدة داعية، وهبه الله قوة إيمان، وقوة عزيمة، وقدرة على التأثير في كل مكان حل به يجعل منه شخصية عالمية، فهو ــ كما يقول الدكتور القرضاوي ــ وإن كان هندي المولد والنشأة والدراسة. عالمي الوجهة والغاية، عالمي النشاط والحركة، وهو ــ وإن اهتم بالمسلمين في الهند، وشاركهم همومهم، وتصدر الصفوف أحيانا في ذلك كما في قوانين الأحوال الشخصية(١٦) التي أرادت الحكومة الهندية يوما أن تفرض على المسلمين فيها ما يحرمهم من خصوصيتهم ــ لايقتصر همه ولانشاطه على القارة الهندية، بل يمتد إلى العالم كله(١٧).

■■ بين المسيرة والرحلات:

ونخلص مما سبق إلى أن الترجمة الذاتية للشيخ لها مصدران أساسيان هما:

١ ــ ما سطره بقلمه في «مسيرة الحياة» من وقائع حياته الخاصة والعامة، وآثارها، وموقفه منها.

٢ ــ كتب الرحلات التي قام بها في حياته، وأغلبها ــ كما

ذكرنا ــ رحلات دعوية.

وهذا التقسيم ــ أو هذا التعداد ــ صناعي لاطبيعي؛ لأن الدارس لايستطيع أن يعزل أحدهما عن الأخر. والشيخ كثيرا مايحيل ــ في مسيرة الحياة ــ على كتب الرحلات، وهي تفصّل مجملا، أو توضح مبهما، أو تضم محاضرات ألقاها في البلاد التي مرّ بها(١٨).

ومن استقراء ماكتبه الشيخ من السيرة الذاتية وأدب الرحلات ــ نخلص إلى أن بين «الرحلة»، وهي حركة دينامية ناشطة، وبين الواقعة في موقعها الثابت مَشَابه، ووجوه التقاء لايخطئها النظر:

فالرحلة لها مضمونها الدعوي، الذي يخلص منه الندوي إلى إبراز الدروس المستفادة، ومعانقة الدلالات المعطاة، في آفاق الدين والمجتمع والنفس، وهي بذلك تشغل شريحة من زمن الترجمة الذاتية، أي مسيرة الحياة.

والواقعة الساكنة مكانيا في نطاقها المحلي ــ استقبالا أو إرسالا، تلقيا أو إلقاء، أخذا أو إعطاء ــ تشغل كذلك شريحة من «مسيرة الحياة»، ورقعة من مساحتها المكانية، مع اختلاف الرحلة والواقعة الساكنة محليا في حظ كل منهما من التوقف والتطور والمغايرة، ولكنه ــ على أية حال ــ فرق درجي لانوعي.

وبنظام التخريط يمكن ترسيمها على النحو التالي:

■■■

وأقوى وجوه الالتقاء بين السيرة الذاتية وأدب الرحلات عند الشيخ هو العقيدة النقية الخالدة، وهي في اللونين كالعصارة الحية في النبات، لاحياة له بدونها، والشيخ يرى بحق أن الكتابة التي لايستطيع القارىء أن يحدد زمانها وبيئتها، ولايهتدي إلى عقيدة مؤلفها وفكره، والقيم والمثل التي يحبها، وينتصر لها، ولايشعر فيها بمرارة ألم وحزن، وحلاوة إعجاب ورضا، كتابة مصطنعة لاتؤثر في النفس، ولاتصلح للبقاء(١٩).

■■ منهج السيرة:

تتعدد مناهج السيرة الذاتية تبعا لثقافة كاتبها، وطوابعه وملامحه الفكرية والخلقية والدينية، والأهداف التي يتغياها من كتابة هذه السيرة. وفي سياقة هذه الدراسة نعرض ــ في إيجاز شديد ــ أهم هذه المناهج خلوصا للمنهج الذي آثره الشيخ لترجمته الشخصية. وهي:

١ ــ **المنهج الروائي:** وفيه نرى كاتب السيرة يعرض مسيرة حياته في شكل قصصي

■■ المنهج السردي التأملي هو المنهج الذي أخذ الشيخ نفسه به في سيرته الذاتية.. وهو منهج يتسق مع طبيعة الشيخ في الالتزام الصادق بالإسلام..

روائي، وغالبا مايتوارى الكاتب في الشخصية الروائية المحورية، ويستخدم ضمير الغائب غالبا، ومن هذا اللون: الأيام لطه حسين، وعودة الروح، وزهرة العمر، وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم.

٢ ــ **المنهج العلمي التحليلي:** وهو لا يعطي الاهتمام للواقعة لذاتها، ولا للتابع الزمني للوقائع، ولكن لما تنفثه الواقعة من دروس ودلالات. وجلالها لاينبع من شغلها مساحة رحيبة في الزمان والمكان، ولكن من عمق الدلالات التي تعكسها في أقطار النفس والضمير. وهذا الطابع هو الذي يحكم مبدأ الانتقاء الذي تعتمد عليه الترجمة الذاتية في اختيار وقائع الحياة.

ومن الكتب التي نهجت هذا النهج كتاب «المنقذ من الضلال» لأبي حامد الغزالي، وهو يصور الغزالي في رحلته النفسية والعقلية، بحثا عن الحق والحقيقة بين الفلسفة والعلم والتصوف، وفيه يصور الصراع النفسي العميق، حين تتجاذبه كل هذه الأحوال، إلى أن يصل إلى اليقين، وهو طلب العلم ونشره، وليس هو العلم الذي به يكسب الجاه، ولكنه العلم الشريف الراقي الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبه الجاه(٢٠).

وقد تبسط الترجمة الذاتية في عدة كتب، يمثل كل منها مرحلة زمانية معينة، أو يغطي جانباً موضوعياً في حياة الشخصية، على المستوي الفكري والخلقي والروحي، والاجتماعي والسياسي، دون التزام بالتتابع الزمني للوقائع والأحداث. وأقرب الأمثلة لهذا النوع كتب عباس العقاد الأربعة: «عالم السدود والقيود»، و«سارة»، و«أنا» و«حياة قلم». وكأنها فصول أربعة في سفْر ضخم من ألف صفحة، تمثل العقاد في معاناة السجن وفي تجربته العاطفية، وفي تأملاته النفسية، وبوْجهه الذاتي، وشخصيته في علائقها مع الآخر، في مجال السياسة والفكر. وقيمة الوقائع والأحداث تتحدد بقدر خدمتها لهذه الأبعاد(٢١).

المنهج السردي المحايد: ووقائع الترجمة الذاتية ــ في هذا المنهج ــ تتتابع منتظمة في خطها الزماني من البداية إلى النهاية، دون تدخل من صاحب السيرة بإبداء الرأي، ودون توقف أمام الوقائع لاعتصار الدلالات، واستخراج ما في الحدث من دروس وتوجيهات، فكل أولئك متروك للقاريء. والارتباط بين الوقائع ــ في هذا المنهج ــ هو ارتباط زماني تصاعدي: من الميلاد أو الصبا إلى الشباب وهكذا ــ إلى التاريخ الذي يتوقف عنده كاتب السيرة.

فهذا المنهج منهج تسجيلي راصد، ينقل إلى الأوراق «المشهود» من وقائع الحياة بحياد تام. ويكون هدف السيرة الذاتية ــ في هذه الحال ــ مجرد التعريف بالشخصية بلسان «الأنا»، وهو منهج تقليدي، لاحظ للتجديد فيه.

المنهج السردي التأملي: وهو يشبه المنهج السابق في الاعتماد على رصد الوقائع والأحداث، مع مراعاته التتابع الزمني إلى حد كبير، ولكن الفارق الأساسي يتمثل في تعامل صاحب السيرة الذاتية مع الواقعة، فهو ــ في المنهج الأخير ــ لايكتفي منها بأن تكون مجرد خيط من خيوط نسيج شخصيته، بل يقف منها موقفا نقديا، بإبداء الرأي فيها، واستخراج مافيها من دلالات ودروس وعبر. فهي في هذا المنهج تؤدي وظيفتين:

الأولى: هي الوظيفة التعريفية: فهي بالاشتراك مع غيرها من الوقائع تقدم صورة مباشرة لصاحب السيرة.

الثانية: هي الوظيفة التوجيهية أو التربوية: ولا تتحقق إلا باعتصار كاتب السيرة مافيها من دلالات ودروس دينية، أو اجتماعية، أو خلقية، أو نفسية، وذلك لايتأتى إلا بالتأمل والاستبطان، والتعامل مع الوقائع بضمير حي، وعقل فاعل، وبصيرة نافذة، «وإلا كان الإنسان معطلا لما وهبه الله من مواهب، فمما أكرمه الله به وشرفه على جميع خلقه أن منحه صلاحية الاعتبار، وصلاحية تلقي الدرس عمن حوله.. والله سبحانه وتعالى يمدح الإنسان بهذه الميزة، فيثير فيه العقل الواعي، ويريد أن يستخدم الإنسان عقله فيقول «إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» آل عمران١٣، ويقول «.. فاعتبروا ياأولي الأبصار» الحشر٢(٢٢).

وهذا المنهج الأخير هو المنهج الذي أخذ الشيخ نفسه به في سيرته الذاتية التي سماها «في مسيرة الحياة». وهو منهج يتسق مع طبيعة الشيخ في الالتزام الصادق بالإسلام «قولا وعملا، وكتابة وسلوكا.. ابتغاء رضا الله، لارضا الناس»(٢٣)

■■■

ويرتبط بالمنهج التعرف على طبيعة هذه الترجمة، والشكل الفني الذي اختاره الشيخ لصياغتها، وأول ما يبدهُنا منها طابعها الموسوعي، فكتاب الشيخ ــ كما يقول الشيخ علي الطنطاوي ــ ليس سردا لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب، فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء، ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس، وأوضاعهم في الهند(٢٤).

وقد أشرنا ــ في مطلع هذه الدراسة خلافا لما ذهب إليه الدكتور يحيى ابراهيم ــ إلى أن السيرة الذاتية قد تأتي في شكل مذكرات، أو يوميات، أو ذكريات، أو اعترفات:

والمذكرات MEMOIRS: تعني تسجيل المرء لبعض حوادث حياته الماضية، في مكان أو ظرف ما.. وقد يتسع هذا المصطلح ليشمل حوادث عامة، يصفها المؤلف من خلال تجاربه(٢٥).

واليوميات DIARIES: هي سجل، قد يكون يوميا للأنشطة الشخصية، ومشاعر الكاتب، وتأملاته في الحياة، والأصل فيه ألا يكون للنشر، ولكنه كثيرا ماينشر المؤلف يومياته الخاصة، إذا اشتملت على آراء، أو وصف أحداث قد تهم الناس، وأحيانا قد ترقى اليوميات إلى درجة الأدب الممتاز. مثال ذلك «يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم(٢٦).

والذكريات REMINISCENCES: تعني الصور الذهنية التي تحضر إلى الذاكرة، وتمثل أحداثا مضت، وكثيرا ما تكون مادة للأدب، وخصوصا في الترجمة الذاتية، وأدب الرحلات، وشعر الرثاء، والحنين إلى الماضي. فهي تعتمد على «التذكر» أى استحضار صور الأحداث الماضية في الذهن(٢٧).

والاعتراف CONFESSION: وهو ذلك النوع من الترجمة الذاتية، التي يروي فيها المؤلف مواقف نفسية أو عاطفية، لايعترف بها كاتبو الترجمة الذاتية عادة(٢٨).

وهذه المصطلحات الأربعة ــ وخصوصا الثلاثة الأولى منها ــ متقاربة المعنى إلى حد كبير، وقد أصبحت بالاستعمال أكثر تقاربا، حتى إنها تتبادل المواقع في سماحة واضحة، فتأخذ المذكرات عنوان «الذكريات»، وتكتب اليوميات تحت عنوان «المذكرات».

أما الاعتراف فيتميز على الأنواع السابقة بالجرأة والصراحة، وذلك بطرح ملامح أو مواقف ذاتية، أو أسرية، جرى العرف على تكتمها، وعدم البوح بها(٢٩).

■■■

وفي كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي» اتبع الشيخ ــ رحمه الله ــ نظام اليوميات، فالتزم في هذه الرحلة كلها أن يسجل كل حديث، وكل انطباع في يومه غالبا، وفي أقرب وقت إذا فاته التسجيل في اليوم، وأن يتحرى الدقة في النقل، والصحة في الرواية، وتسجيل الحديث في لفظ المتحدث، ولغته.

وتبدأ هذه اليوميات يوم الأحد ١٣/٤/١٣٧٠ ــ ٢١/١/١٩٥١ وتنتهي بيومية الأحد ٩/١١/١٣٧٠ ــ ١٢/٨/١٩٥١. وقد وضحنا من قبل طبيعة الارتباط بين السيرة الذاتية

■■ استخدم الشيخ: المذكرات والذكريات والاعتراف بصورة متداخلة، دون انخراط أجزاء المسيرة تحت شكل واحد، ودون التزام حاد بمفهوم هذه الأشكال.

والرحلات التي سجلها الشيخ في عدد من كتبه بالتفصيل.

■■■

وفي سيرته الذاتية استخدم أبوالحسن الأشكال السابقة كلها: المذكرات والذكريات والاعتراف بصورة متداخلة، دون انخراط أجزاء المسيرة تحت شكل واحد، ودون التزام حاد بمفهوم هذه الأشكال، مع استثناء الجزء الثالث من هذه السيرة، فقد وصفه الكاتب بأنه ذكريات، ولكنه اتبع ــ في ترتيب هذه الذكريات وتصنيفها ــ طريقة القدماء في كتابة التاريخ، وهي «الطريقة الحولية» التي ابتدعها ابن جرير الطبري في تاريخه، وتعدد فيها مختلف الحوادث في كل سنة على حدة، وذلك بعناوين مثل: في سنة كذا، أو ثم جاء في سنة كذا. أما الصلة بين الحوادث المتعددة التي تحدث في السنة نفسها فكانت في الغالب تبين بطريقة سهلة، وهي إضافة هذه الجملة: وفيها.. أي: وفي السنة نفسها(٣٠).

وكذلك نرى عناوين فصول الجزء الثالث: ذكريات عام ١٩٨٨ (ص١١) ــ ذكريات ١٩٨٩ (ص٣٣) ــ ذكريات ١٩٩٠ (ص٦١) ــ ذكريات ١٩٩١ (١٠٧) ــ ذكريات ١٩٩٢ (ص١٤٣) ــ ذكريات عام ١٩٩٣ (ص١٩١ ــ ٣٠٤).

أما الجزءان الأول والثاني فالعناوين الموضوعية تتصدر كل فصل من الفصول، دون تقسيم حولي، أو شهري، وإن كان تحديد تاريخ الحدث لازمة ثابتة يحرص عليها الشيخ في سياق الفصول، وقلّ بل ندر أن يخالف هذه اللازمة المطردة(٣١).

وغالبا مايكون العنوان المتصدر مركبا من العناوين الجزئية، الموزعة على موضوعات الفصل، وتكتب جانبيا ناحية اليمين، كهذا العنوان ــ على سبيل التمثيل: رحلات إلى انجلترا، والجزائر، والحجاز، والمشاركة فى جلسة المركز الإسلامي بأكسفورد، وملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر، والإقامة بالحجاز لأيام، وأحداث أخرى مهمة(٣٢).

وعرض العناوين بهذه الطريقة المباشرة ذات الطابع العلمي الذي يخلو من الإيحاء: يحدد الأفكار ويحصرها، وذلك لأنه يلمع مسبقا إلى مضمون الفصل، وهذه الفائدة الموضوعية تضحّي في المقابل بالتشويق المرجوّ في السير الذاتية.

■■ التصوير والقوة الكاشفة:

«في مسيرة الحياة» ترجمة ذاتية، ترسم لنا شخصية كاتبها رحمه الله، وكثيرا من ملامح الشخصيات الأخرى التي التقى بها، كما تلقي إضاءات قوية على مجتمعه، وغيره من المجتمعات والجماعات، والعقائد، والآداب. وفيما يلي نحاول أن نتعرف على ماقدمته هذه السيرة من صور في هذا المجال:

أولا ـ صاحب السيرة: قدمت هذه السيرة شخصية كاتبها رحمه الله بأبعادها العقلية والنفسية والروحية، ومن هذه الأبعاد مايتمثل في البوح الذاتي المباشر، وذلك في حديثه عن نفسه، ومنها مانستخلصه من مواقفه المتعددة على المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية.

يبرز الكاتب قيمة التثقف الذاتي، فيرى أن الدراسة المنتظمة والكتب المقررة ليست إلا لتفتح آفاق الدراسة والمطالعة، وتهيىء للتدبر والتأمل، والإفادة من جهود المتقدمين، واقتطاف ثمرات العلم من حديقته الغناء، وأن التخرج في المدارس والجامعات وسيلة لاغاية، وهو عبارة عن بدء السير، والشروع في الرحلة الطويلة في مسار العلم الشاسع البعيد(٣٣).

وكان لأسرته الأثر في هذا التفتح العقلي، والقدرة على التعامل الصحيح السليم مع معطيات العلم والثقافة، وهو عميق راسخ يعترف به الكاتب، فيرى أن عقليته اشترك في تكوينها تأثيرات أسرته: الوالد والوالدة، والبيئة الأسرية وتقاليدها، والذوق الأدبي، والتأليفي، الذي استمر في ثلاثة أعقاب متوالية، وسعة الأفق، ورحابة الصدر، وحب الدفاع عن الدين، والحمية له؛ نتيجة العلاقة والانتماء إلى أسرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته. وفوق كل ذلك صحبة أخيه الأكبر وتربيته، الذي كان جامعا بين خصائص التعليم القديم والجديد.. وبذلك وجد في نفسه انسجاما بينه وبين طبيعة ندوة العلماء الفكرية والدينية، والثقافة التي تمثلها، وتحمل لواءها، ولذلك لم يضطر ــ لتكيفه مع هذه البيئة، ووضع نفسه في مكانها اللائق فيها ــ إلى هجرة عقلية،

أو رحلة ذهنية طويلة، بل شعر كأنه انتقل من حجرة أو زاوية في البيت إلى زاوية أخرى، وقد كان من الأسباب وراء ذلك أيضا أنه نشأ من البداية النشأة العقلية والعلمية في جو ندوة العلماء، وفي ظلها(٣٤).

فنحن أمام شخصية سوية متوازنة القوى والطاقات، متسقة مع الجو النبيل الذي نشأت فيه، مستجيبة للتأثيرات الراقية التي اتجهت اليها، ومتفاعلة معها في مصداقية بنيت على هذا الأساس الشريف المتين. واستكملت خصائص القيادة والريادة والعظمة والشرف. «وإذا كان من بنى حصنا أو قاد جيشا عد من العظماء، فأبوالحسن بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصونا أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمة صغيرة من العلماء الصالحين، والدعاة المخلصين»(٣٥)

■■■

وقد أشرنا من قبل إلى أن الشيخ لم يكن يكتفي من الواقعة بروايتها وتسجيلها، ولكن يعتصر منها الدرس الذي يحمل الفائدة له وللآخرين. وهو طابع القائد المصلح الموجه، والأمثلة في هذا المقام أكثر من أن تحصى، نجتزىء بالقليل منها:

١ ــ في سنة ١٩٢٨ تقدم لامتحان «قسم الأدب العربي» بجامعة لكهنؤ، وكان حظه الرسوب في هذا الامتحان، ويعلق على هذه الواقعة، مبرزا الفائدة التي خرج بها بعد ظهور هذه النتيجة المحزنة بقوله: «ولكن هذا الرسوب لم يخْل من حكمة إلهية في التربية، فقد أراد الله أن أجرب الرسوب والإخفاق، وأتحمله، وأصبر عليه، وأضطر للجد والجهد مرة ثانية(٣٦).

٢ ــ في سنة ١٩٢٩ يتسلم ــ في حفل عام ــ شهادة التخرج من حاكم الولاية الإنجليزى، ويأخذه الأسى إذ يتسلم شهادة في اللغة العربية من حاكم إنجليزى، وأحد أفراد الشعب المعادي للإسلام.

ولكن الشيخ يوجه إلى أصل من أصول النقد ــ كما يجب أن يكون ــ وهو أنه «ينبغي أن يحكم على كل شيء باعتبار المكان والزمان، ويوزن بميزان عصره وبيئته، فلم يكن ذلك معيبا في تلك البيئة التي أتحدث عنها، والعصر الذي أؤرخه(٣٧).

٣ ــ وبعد زيارته زيارات دعوية لبعض البلاد العربية، يوجه الدعاة الذين يقومون بمثل هذه الرحلات الدعوية ألا يطأوا أرض هذه البلاد إلا بعد أن يدرسوا أدبها ولغتها وثقافتها دراسة ناقدة بصيرة، ويسبروا غورها، ويتعرفوا على حلوها ومرها(٣٨).

٤ ــ وبعد أن يعدد أسماء عدد كبير من الكتب والموسوعات التي قرأها بالعربية والإنجليزية، يقودنا إلى درس إيماني واقعي، وهو أن العبرة ليست بكثرة المقروء، فالفائدة المتوخاة لاتتحقق إلا بتوفيق الله «فالتوفيق إذا حالف عبدا فإنه يستفيد أحيانا من معلومات قليلة، ودراسات محدودة مالايستفيد غيره، وينتج عملا كبيرا، ويتجلى بقدرة الله تعالى مشهد «نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين»(٣٩).

■■■

■■ لم يكتف الشيخ من الواقعة بروايتها وتسجيلها، ولكنه اعتصرَ منها الدرس الذي يحمل الفائدة له وللآخرين.. وهو طابع القائد المصلح الموجه.

والتعامل مع الوقائع بهذه الطريقة يدل بداهة على سعة الأفق، كما أنه يرتبط ــ بل يسترفد ــ مجموعة من القيم العليا، تكوّن نسيج هذه الشخصية، من أهمها، الزهد، والترفع على مفاتن الحياة وزخارفها، وزهد الشيخ «ليس زهد الحرمان، ليس زهد الجائع الذي لم يجد الطعام فوطن نفسه على فقده، بل زهد الذي فقد شهوة الأكل، والأكل أمامه، يحضر المؤتمرات ولكنه يجتنب الفنادق الكبيرة التي ينزلون فيها الوفود، وينزل في بيوت تلاميذه، وما أكثر هؤلاء التلاميذ»(٤٠).

وانطلاقا من هذه السجية يرفض الشيخ سنة ١٩٤٣ عروضا سخية بمرتبات ضخمة، للعمل خارج الهند، بعد أن ترك وظيفته للتفرغ للدعوة. يقول الشيخ بعاطفة إيمانية صادقة «.. لو سئلت في الآخرة: هل كنت تركت وظيفة مدرستك ووطنك لأن الراتب كان قليلا، وقبلت الوظيفة الفلانية لأن الراتب كان كبيرا؟ فماذا يكون جوابي...»؟(٤١)

وعاش أبوالحسن ــ طيلة حياته ــ متواضعاً؛ لم يعرف الكبر والتعالي والغرور إلى حياته وشخصيته سبيلا، حتى بعد اشتهاره على المستويات العربية والإسلامية والعالمية، وقد رأينا أن من أسباب تردده في كتابة سيرته الذاتية أنه ــ كما قال عن نفسه «كنت أستصغر نفسي في مجال التنويه بها، وأتضاءل أمام الرجال الذين كتب في سيرتهم وتراجمهم، أو تناولوا تقييد المذكرات لحياتهم».

ويصف نفسه «بالعبد الضعيف»(٤٢)، وأنه «قليل العلم، قصير الباع»(٤٣) ولما عمل مدرسا بدار العلوم نراه يتقبل ــ في سماحة ــ نقد طلابه له، بأنه في حاجة إلى الإكثار من المراجعة والمطالعة، واستجاب لهذا النقد استجابة علمية، ورجع إلى أمهات المصادر مثل تفسير «الكشاف» للزمخشري، و«معالم التنزيل» للبغوي، وتفسير «المنار» و«ترجمان القرآن» لأبي الكلام آزاد(٤٤).

■■■

وتواضعه لايتعارض مع سمة خلقية أخرى هي عزة النفس، وترفعها بالحق وفي الحق، فحينما كان في زيارة الكويت مع بعض رفاقه سنة ١٩٦٢ فوجيء ببرقية من وزير المالية بالحكومة السعودية تحمل دعوة له ولرفاقه لزيارة الحجاز، وأداء فريضة الحج، ولكنه لم يستجب للدعوة، وقال لرفاقه: إننا لانسافر على دعوة شخصية، ولانريد أن نحمل منّة أحد بصفة شخصية(٤٥).

وتواضعه لم يمنعه من الاعتزاز بأعماله الفكرية التى كان لها آثارها الطيبة في نفوس المسلمين، ككتابه الرائد «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وكتابه الذي طبعه سنة ١٩٣٩ عن «سيرة السيد أحمد الشهيد»، وقد وصفه الشيخ بأنه «أول كتاب ألف حسب اتجاه العصر وطبيعته»(٤٦).

ويبدى اعتزازه الشديد بالرسالة التي وجهها سنة ١٩٨٤ إلى «أنديرا غاندي» رئيسة الوزراء، ورئيسة الحزب الحاكم، ينبهها فيها إلى خطورة حركة الإحياء الهندوسية، والفوضى الخلقية، والفساد العام الذي يدمر البلاد. يقول الشيخ في سيرته عن هذه الرسالة «.. وهي تستحق أن يدرسها قادة البلاد، ورؤساء الحكومات، والمسئولون، والإداريون، والمثقفون المعاصرون، بل قادة الجماعات الإسلامية، والسياسيون والمثقفون المسلمون أيضا»(٤٧).

وعودا على بدء أقول: لاتعارض بين التواضع وبين الترفع وعزة النفس، بل إن التواضع لايكون بهذا الوصف إلا إذا صدر من عظيم جليل عزيز النفس، وقديما قالوا «لاتواضع من وضيع، وماهان ــ مِنْ تَواضُعٍ ــ رفيع».

■■■

وفي الشيخ صراحة في الحق، ووضوح في القول، بعيدا عن الالتواء والتخفي والتواري، فهو يورد في تضاعيف سيرته ــ وخصوصا الجزء الأول ــ كثيرا من «الاعترفات»، التي يسقطها كتاب السير من سيرهم في العادة، لأنهم يجدون في ذكرها مايعيبهم، ويسيىء إليهم. ومن هذه الاعترافات:

١ ــ تصريحه بأن طفولته لم تكن مرجوَّة، تعلق عليها في ظاهر الأمر الآمال الكبار، بل كانت طفولة يائسة، لاتبعث الآمال، ولاتبشر بمستقبل زاهر، بل إن كثيرا من أترابه وأطفال الأسرة كانوا يفْضُلونه ــ بصفة عامة ــ في الذكاء والشعور، وكانت والدته تحزن لذلك(٤٨).

٢ ــ اعترافه بأن طلابه كانوا على حق، عندما أشاروا

بلطف إلى أنه في حاجة إلى الإكثار من المراجعة والمطالعة، وذلك دفعه إلى مزيد من التحصيل، والرجوع إلى المصادر الأمهات(٤٩).

٣ ــ اعترافه بأنه كان يطمح ويطمع أن يكون كإقبال، وأن يصنع صنيعه، ولكنه أخفق في تحقيق هذا الأمل. وفي ذلك يقول «كنت أرى أني أقدر بالجهد والدراسة، وإتقان أسلوب الأداء، وطول المران، على الوصول إلى هذا المطلوب، أو أقارب حدوده، ولكن تراءى لي أن مصدر آراء إقبال وأفكاره، وخواطره، ومنبع نغماته، وأناشيده فوق قدرتي، ووراء إدراكي.. إنما هو فيض رباني، ورشْحة من الرشحات العلوية، إنها عبقرية لاتدين للذكاء، وسعة العلم، وقوة التعبير، إنما هي هبة من هبات الله التي لانهاية لها»(٥٠)

٤ ــ اعترافه بإخفاقه في تحقيق الفائدة المرجوة من قيامه بالتدريس، وانصرافه إليه من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٣٩، فكان يشعر بأن كل مايبذله من جهد وكد وتحرف وتألم في محاولة تعليم الطلاب، وإصلاحهم خلقيا ودينيا لم يؤثر التأثير المطلوب، وكان يشعر أن درس اليوم أثر في الجدران الجامدة، وترك عليها نقوشا غائرة، ولكنه لم يترك في الطلاب أي أثر(٥١).

ثم يقوده هذا الشعور المر إلى درس ميداني صادق، وهو أن هذه المواعظ والتلقينات المدرسية، لاقيمة لها بدون حركة، ودعوة صالحة، واستخدام قُوَى الطلاب ومواهبهم خارج الدروس، وفي جهود ميدانية توافق أعمار الطلاب، ومستواهم، وأهداف التعليم والتربية(٥٢).

وهذه الاعترافات تقطع بمصداقية صاحب السيرة.. مصداقيته مع نفسه، فلم يحاول أن يخادعها ويخدعها، ومصداقيته مع الآخرين، فقدم صورته بأبعادها الحقيقية، دون تزويق أو تلوين يؤدي إلى تزوير الصورة، وانخداع الآخرين بها.

■■■

وتبرز السيرة ملمحا جوهريا من ملامح الشيخ وهو «الملكة النقدية»، وهي ملكة يغذيها الإيمان القوي، والعاطفة الدينية الصادقة، والبصيرة النافذة والتفكير الواعي، فلا تكاد تعثر في سيرته على حدث أو مشهد إلا وعرضه على ميزان النقد، وقيمه التقييم الصائب السديد.

ونقده يتسم بالصدق، وقوة العاطفة، ودقة الحكم، وأغلبه يتجه إلى حال المسلمين، ومسائل ترتبط بوجودهم، وفي كثير من نقده تجديد وابتكار وطرافة:

فهو يصف حال المسلمين المعاصرين بأنهم لم يعودوا «العامل» المؤثر في التاريخ، بل «المعمول» الضعيف.. فهم ــ كما يقول المثل الأوردي «كالبطيخ سواء أوقع على السكين أن وقع عليه السكين، فهو في الحالين المقطوع الخاسر»(٥٣).

ويشخص الداء العضال الذي يستبد بالمسلمين. ويرى أن أهم أسبابه:

١ ــ إيثار المصالح والمنافع على الأخلاق والمباديء، والمعايير الخلقية.

٢ ــ الغفلة عن مواجهة تحديات العدو العالمي الأصيل (أوروبا والحضارة الأوروبية).

■■ تبرز السيرة ملمحا جوهريا من ملامح الشيخ وهو «الملكة النقدية»، التي يغذيها الإيمان القوي، والعاطفة الدينية، والبصيرة النافذة والتفكير الواعي.

٣ ــ قلة العمل، والجبن والخوف.
٤ ــ الطاعة العمياء للقيادة القومية العلمانية.
٥ ــ التبذل، والعاطفية الحادة في الخطب والمقالات، وإبداء العواطف والخلاف(٥٤).

■■■

وعن رأيه في قيام دولة باكستان يقول «كنت من المعارضين لنظرية قيام باكستان، أو نظرية التقسيم، وكنت أؤمن بحاجة بقاء المسلمين في الهند، وبذل كل الجهود والطاقات في التأثير على الأكثرية، وتشريفها بالدين الإسلامي، بتبليغ الدين إليها، وتوجيه الدعوة، وإقامة نماذج إسلامية خلقية وروحية إنسانية عالية. وأرى أن هذا العمل أجدى وأنفع، وكنت أرى أن هناك إمكانات واسعة واضحة لهذا العمل.

ولكن بعد قيام باكستان لم يكن لنا بد من تمني الخير لها، والدعاء لازدهارها وتقدمها، بدلا من مخالفتها(٥٥).

■■■

والنقد السابق يقودنا ــ بتداعي المعاني ــ إلى نقده لأسلوب الدعوة التقليدي الذي يعتمد على الدعوة في تجمعات المسلمين، ويقترح «عقد اجتماعات شعبية مشتركة، يدعى فيها غير المسلمين أيضا باهتمام بالغ، لاسيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطبٌ مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم، وتعرفهم بالإسلام، وتزيل الوحشة منه، وسوء التفاهم.(٥٦) فإهمال هذه الأكثرية ــ غير المسلمة ــ والتغاضي عنها، وعدم إتاحة أي فرصة لاستماعها إلينا، ومعرفة ديننا، جناية على أمتنا، وضرر على بلادنا(٥٧).

■■■

ويوجه نقداً شديدًا إلى بعض الدعوات والحركات الإسلامية؛ لأنها عملت بالتسرع في هذا الأمر، وصدرت من قادتها أعمال وتصرفات وبيانات، وأبدى أتباعهم، وممثلوهم، والمتحدثون عنهم تحمسا زائدا، فكسبت العداء مع حكومات البلدان الإسلامية، وأصبحت فريقاً مخاصماً لها، وأحدث هذا الموقف في بعض البلاد الإسلامية والعربية خوفا من العمل الإسلامي، وذعراً من كل نشاط باسم الإسلام، وكل مجهود يقصد استثمار الوعي الإسلامي، ودعم الحركة الإسلامية، وحدثت حساسية زائدة به في القادة السياسيين(٥٨).

ولكن هذا الشعور لايعفي الحكومات من مسئوليتها عما أنزلته بهذه الجماعات من نكبات، من الحجر والسجن والتعذيب. لكن «يجب أن تكون هذه التجربة موضع الاعتبار، ويستفاد منها، ونتجنب مشاكل لاداعي لها»(٥٩).

■■■

وينقد فكرة «القومية العربية» نقداً شديداً، ففي واحدة من محاضراته يوجه حديثه إلى العرب قائلا «إنكم لو اتخذتم القومية العربية دينكم وإيمانكم فكأنكم تخدعون المسلمين في شبه القارة الهندية، الذين لن يزالوا على مدى تاريخهم الطويل متمسكين بالقومية الإسلامية، إذ دعوتموهم إلى الإسلام، ورجعتم أنفسكم إلى جاهليتكم القديمة(٦٠).

ونلاحظ أن الشيخ اتسم في نقده ــ مع شدة لهجته أحيانا ــ بالوقار والعقلانية، وعفة اللسان، وصونه عن الفاحش من القول والتجريح. ولم يكن نقده منطلقا لتحقيق هدف خاص، أو مصلحة شخصية، بل كان ينطلق من عاطفة دينية قوية، وحرص شديد على تحقيق مصلحة المسلمين في الهند وفي كل مكان.

■■■

■■ ثانيا : شخصيات الآخرين :

التقى الشيخ أبوالحسن ــ كما ذكر في مسيرة حياته ــ مئات الشخصيات، بعضها عن طريق القراءة عنها أوْلها، وبعضها عن طريق اللقاء المباشر أو المعايشة، منهم كُتاب ومفكرون، ومنهم شعراء وأدباء، ومنهم علماء وفقهاء، ومنهم زعماء وقادة، زيادة على من عايشهم من أقاربه، وأفراد أسرته. وفي هذا المجال نلاحظ مايأتي :

١ ــ أن الجزء الأول من سيرته ضم العدد الأكبر من أسماء هذه الشخصيات؛ ليتعرف القاريء ابتداء عليها، فيكون مهيئا ــ بهذه المعرفة المسبقة ــ للتفاعل مع

ماسيرد بشأنها ــ فيما بعد ــ من أحداث وسلوكيات.

٢ ــ أن من هذه الشخصيات مارسم الشيخ له صورة مفصلة، أو موجزة، ومنها ما اكتفى معها بالإلماح أو الإلماع، وذلك تبعا لمقتضيات الحال.

٣ ــ أنه كان في رسم هذه الشخصيات متسما بالإنصاف والاعتدال بعيدا عن الغلو والإسراف.

٤ ــ أنه في رسمه الشخصية كان يعطي اهتمامه الأكبر للبعد الجوّاني أو المعنوي؛ الذي يضم الخصائص النفسية والعقلية والروحية والخلقية، وفي المرتبة الثانية يأتي البعد الاجتماعي الذي يمثل مجموعة من العلائق بين الشخصية والمجتمع، وطبيعة هذه العلائق، وذلك ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالمجتمع الإنساني العام. وندر أن يهتم بالبعد الخارجي أو البراني للشخصية، والذي يتمثل في الشكل والهيئة. كما أنه يعرض من سلوكيات الشخصية مايؤيد ويدعم خطوط الصورة التي قدمها.

ونقدم فيما يأتي بعض الصور التي نلتقيها في مسيرة الحياة :

١ ــ كان خالي الحافظ السيد عبيد الله يملك شخصية محببة تجذب القلوب، وتجمع بين مختلف الصفات والملكات، بل كان ـ حسب تعبير بعض رجال الفكر البصيرين ـ نموذجاً حياً للحياة الإسلامية، كان حافظا جيدا للقرآن الكريم، يتلوه بصوته الواضح الرخيم، بحيث يخلب القلوب، ويأخذ بمجامع النفوس، وكان بالرغم من كونه يملك الأراضي الواسعة، ويعد من الإقطاعيين الكبار في المديرية، مجتهدا دؤوبا، ملتزما بالمواعيد، نشيطا مجدا، يتجلى في مشيته جدّه وصرامته وعزيمته، ويقف طوال الساعات يراقب الأعمال.

وكان إمام مسجد الحي في الصلوات الخمس، ومراقبا لأراضيه وإقطاعه، مديرا لأعمالها في وقت واحد، فلو رآه أحد في المسجد ظن أنه لاشأن له بالدنيا والأرض والإقطاع، وإذا رآه في مراقبته لحقوله ومزارعه، ظن أنه يشق عليه التزام الصلوات، ولكن مستحيل أن يقصر في أحد الأمرين. وكان موضع ثقة وتقدير من أهل القرى القريبة، فكان الناس يضعون عنده الأمانات، ويودعون الأموال ويأمنون(٦١).

٢ ــ الشيخ عبدالقادر الرائي بوري، من العلماء الربانيين، المطلعين البصيرين، من أصحاب الفراسة والذكاء، والانفتاح الذهني، الذين يجمعون بين العلم والعمل، والتربية والتزكية، وهو من أولئك القادة الروحيين، والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون في كل زمان؛ للقيادة والتوجيه والاستفادة من بركاتهم، وطيب أنفاسهم، وقد رأينا في اطلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه، وبصيرته السياسية، وفراسته الدينية، وجمعه بين فضائل الدين والدنيا، والجانب العملي المشرق نموذجا طيبا للزوايا السنوسية، وذكرتنا أخلاق الشيخ الفاضلة، وعطفه الأبوي، وتواضعه وحفاوته وضيافته بأخلاق السلف الصالحين، الذين كانوا يقتدون بأسوة صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم(٦٢).

٣ ــ وفي حديثه عن أبي الأعلى المودودي نرى مزجًا متوازناً دقيقًا بين الحب والصراحة التي لاتعرف المواربة والالتواء، ولكنه حب وصراحة تهيمن عليهما روح الاعتدال والإنصاف : فهو

■■ فتح الأبصار على كنوز مطمورة تراكم عليها الصخر بثقله الضاغط، ونسيها الوارثون من أهلها.. فانبرى ليحفظ لهذه الكنوز حرمتها.

يشعر شعورا غامضا بأن انجذابه للمودودي، وتجاوبه معه يرجع لكتاباته القوية البليغة، التي رأى فيها صورة لخواطره وتمنياته، لا بشخصية قوية قيادية، كواحد من قادة الإصلاح والتجديد، والتربية الإسلامية وتزكية النفوس ممن قرأ تراجمهم، وكتب عن سيرهم في مؤلفاته(٦٣).

ويضيف أبوالحسن ــ في تواضع، وأدب جم ـ «ولذلك فقد كنت عاجزاً ــ لدراستي الدينية المباشرة، واستفادتي من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين الذين كانوا أوسع وأعمق علما في الكتاب والسنة، ونجد عندهم اجتهادا في الفكر والرأي، وعمقا وإحاطة في الدراسة ــ عن أن أعتبر الأستاذ المودودي مفكراً إسلامياً فريداً، يندر نظيره عبر القرون. إنما كنت أعتبر ميزته الأساسية، وجوهره، ذكاءه، وألمعيته، وحدة ذهنه، وقدرته الفائقة على الكتابة، والعرض في أسلوب عصري مؤثر. ولا أزال أعترف له بذلك(٦٤).

■■■

■■ ثالثاً البيئة والجو العام:

لايستطيع أحد أن ينكر أثر البيئة في تشكيل الشخصية وتوجيهها، وقد يغلو بعض الباحثين فيرى لها التأثير الأكبر، ويقدمها على الموهبة الشخصية، كما ذهب الناقد الفرنسي تين(٦٥).

ولكن الإسراف واضح في هذا الرأي، وإن كان للبيئة آثارها الواضحة على الشخصية، وتوجيه إمكاناتها، ولكنها لاتخلق الموهبة، ولاتستقل بالتأثير.

وقد صور الشيخ أبوالحسن البيئة التي عاش فيها ابتداء من البيئة الأسرية، وبيئة المجتمع العام، وكثيرا من الملامح والأبعاد الاجتماعية والدينية والعلمية والسياسية، في البلاد التي زارها، وكان له حضوره الفاعل الذي يُحسُّ به من يقرأ مسيرة حياته، وكأنه نقطة مضيئة، تسبح في كل أفق يعرض للحديث عنه في سيرته، مما يبقي لترجمته الذاتية هذا الطابع، ولا يقربها من التاريخ المحض.

ويتسم ماكتب بالصراحة والإنصاف بعيدا عن الإسراف والغلو وارتباطا بالأهداف التي عاش وجاهد من أجلها؛ يتحدث عن أسرته فيصنفها بأنها كسائر الأسر، مرت بأدوار الرقي والازدهار، والسقوط والانحطاط، والأخذ بالرخص والعزائم(٦٦).

وبالاستقراء والمتابعة يستخلص الصفات المشتركة في أسرته، وخلاصتها ــ من التفصيل الذي قدمه :

١ ــ أنها أسرة حافظت على نسبها، إلى حد المغالاة والمبالغة، مما لم تكلف الشريعة به.

٢ ــ أنها أسرة لم تزل متمسكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية، متجنبة للبدع والمحدثات.

٣ ــ أنها أسرة تميزت بالرجولة، والحمية الدينية، وعاطفة الجهاد، التي يمكن أن تعبر عنها بالجملة كلمة «الفتوة».

٤ ــ أنها أسرة تتسم ــ من دون بلادة وغباء ــ بنوع من السذاجة والوداعة، ورجالها يفضلون أن يكونوا مظلومين على أن يكونوا ظالمين.

٥ ــ أنها أسرة ظلت على اتصال متين بأي وجه من الوجوه بالشريعة والطريقة، أي بالناحيتين العلمية المحضة، والروحية والسلوكية، فإذا كان يظهر فيها العلماء الراسخون في جانب، يظهر المشايخ الروحيون في جانب آخر.

٦ ــ أنها أسرة لم تكن في أي فترة من فترات التاريخ ذات ثروات طائلة وأموال سائلة، بل قضت أكثر حياتها في التقشف والضنك والمكابدة(٦٧).

إنها ــ كما قال الشيخ بحق ــ كانت ــ ولم تزل ــ أسرة العلماء والمؤلفين، وقد كان والده من كبار المؤلفين في عصره. ويعترف بالتأثير الكبير للبيئة والوراثة في الأسرة، ولايزال هذا التأثير ينتقل من جيل إلى جيل، ويطبع الصغار والكبار، والبنين والبنات، بطابعه في قليل أو كثير. وانتقل ذوق الوالد، وانهماكه في القراءة، وغرامه بها إلى الأبناء، حتى إنهم كانوا ينفقون كل نقودهم، ومايهدى إليهم من روبيات في شراء الكتب(٦٨).

■■■

وبعد فترة التعليم المنتظمة سنة ١٩٣٤ ــ أي بعد عشرين عاما من مولده، يبدأ في حياته فترة المطالعة الذاتية، والجهد الشخصي الذي لايحد بحد وأمد(٦٩) ثم

يبدأ العطاء معلما في دار العلوم التي كانت ثمرة من ثمرات ندوة العلماء.

وفي نطاق البيئة المحلية يعيش متفاعلا مع مشكلات المسلمين في الهند مجاهدا في سبيل الدفاع عن حقوقهم، وعن الشريعة، والعمل على رفع الظلم عنهم، مستخدما شتى الوسائل، من مقابلات لكبار المسئولين، ورفع الرسائل إليهم، وأسلوب الدعوة بالخطب والمحاضرات(٧٠).

وفي نطاق البيئة الخارجية كان لأبي الحسن امتدادات محمودة كان لها ثمارها الطيبة، وآثارها البالغة، وتمثل ذلك ــ كما ذكرنا ــ في رحلاته المتعددة إلى البلاد العربية، وأوروبا وأمريكا، معتدا بسلاح الدعوة في خطب، ومحاضرات، وكتابات، ومؤتمرات على ماهو مسجل في سيرته، وكتب الرحلات التي كتبها. ومن أهم مآثره تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وتوليه رياستها إلى أن لقي ربه(٧١).

■■■

■■ رابعاً: الأداء التعبيري:

ذكرنا ــ من قبل ــ أن الشيخ قد وضع سيرته باللغة الأوردية، وترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية. وللحق كانت هذه الترجمة من الدقة والتوفيق، وكأنها كتبت بالعربية ابتداء، مما يدل على أن المترجم كان رفيع المستوى في اللغتين : الأوردية والعربية.

وفي المسيرة نلتقي ثلاثة مستويات من الأسلوب:

الأول: الأسلوب المرسل العفوي، الذي يأخذ طريقة الحكاية بضمير المتكلم. وهو الغالب على «المسيرة» بأجزائها الثلاثة.

و **الثاني**: الأسلوب العلمي أو القريب من العلمي، وهو الأسلوب المباشر، ذو الألفاظ المحددة المدلول، ويعتمد على التحليل والتحديد، والترقيم، ويخاطب العقل، ويهدف إلى الإقناع.

ومن أمثلته «.. والعوامل المهمة التي أدت إلى مأساة فلسطين، كان العامل الأول منها : فقد الدوافع النفسية إلى الاستماتة والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة، والعامل الثاني : طغيان العقل على العاطفة، وضعف روح المغامرة. والعامل الثالث: هو عدم وجود شخصية في الشعوب العربية والحكومات العربية كلها تملك فلسطين وقضيتها عليها مشاعرها وتفكيرها(٧٢).

و **الثالث**: الأسلوب الأدبي الرفيع: وهو التعبير الجمالي المؤثر في الآخرين، بأن يستثير المرء في نفسه إحساسا معينا، وهو إذ يعبر عنه بالكلمات يحاول أن ينقل ذلك الإحساس حتى يمارس الآخرون الإحساس نفسه الذي عاشه ويتأثروا به، ويعيشوه أيضا(٧٣).

فالتعبير الأدبي الجميل لايكتفي بأداء الوظيفة التعريفية التي تتحقق بنقل المعاني والأفكار، بل يؤدي وظيفته الجمالية بالتأثير في الوجدان، وهز النفس والمشاعر، وتحقيق المتعة النفسية والروحية للمتلقي.

وفي تضاعيف مسيرة الشيخ أبي الحسن يلتقي القارىء قطعاً أدبية رائعة آسرة، كانت

في تضاعيف مسيرة الشيخ يلتقي القارىء قطعاً أدبية رائعة آسرة، كانت انعكاسا صادقا لمناسبات ومواقف توهجت فيها وتجاهها عاطفته ومشاعره.

انعكاسا صادقا لمناسبات ومواقف توهجت فيها وتجاهها عاطفته ومشاعره، فجاءت فيض الخاطر دون أن يتكلفها، أو يقصد إليها، فإن ذلك يسيء إلى القطع الأدبية، ويفقدها الرونق والعذوبة التي تمتاز بها، وتطمس نورها، وقوة تأثيرها(٧٤).

ومن قطعه الأخاذة في سيرته :

١ ــ ما كتبه موجها إلى الأستاذ مسعود الندوي حين كان مقيما في العراق (في ١٩٤٩/٨/٣) :

لاتأل جهدا في بذر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقم حجة الله عليهم، وصلْ الليل بالنهار، وحرق القلب، وأذب الجسم، وأهرق دموع العين، ودماء الكبد أهرقها سيلا مدرارا، حتى تبكي دجلة والفرات على قصرَ باعهما، وقلة بضاعتهما. أمسك بتلابيب كل شخص، وقل له : أيها الغزال الضال في صحراء العرب، وياكرامة العالم، وشرف الأمم، ويا أمل إبراهيم ومحمد ــ عليهما الصلوات والتسليمات ــ أين أنت؟(٧٥).

٢ ــ وعن إلغاء الخلافة العثمانية في ١٩٢٤/٣/٣٠. كتب :

.. حكم المجلس الوطني بالقسطنطينية بحل الخلافة والقضاء عليها، وبذلك انهدم ــ ليس سور الأماكن المقدسة فحسب ــ بل سور عرض المسلمين، وعزهم، وكرامتهم، الذي بناه الأتراك العثمانيون بتضحياتهم الجسيمة، وقوتهم العسكرية، وبمكانة الخلافة المقدسة(٧٦).

٣ ــ ومن أشد هذه القطع تأثيرا في النفس ماكتبه عن موت أبيه، وهو طفل صغير لم يجاوز التاسعة من عمره، (عام ١٩٢٣). يقول واصفا حال المعزين معه :

... فكان منهم من يجلسني حبا وشفقة بجنبيه، ومنهم من يضمني إلى صدره، ومنهم من يمسحني حبا وحنانا. كانت العيون تدمع، والقلوب ترق وتحنّ، أما الذي كان يستحق هذه التعازي، ويقدر على شكرها، وإيفاء الموقف حقه ــ وهو أخي الأكبر ــ فقد كان على مسافة ألف ميل في «مدراس» ــ ولم يكن عنده أى فكرة عن الحادث(٧٧).

■■■

ولايحق لنا أن نفاضل بين الألوان الثلاثة من الأساليب لتعيين أنسبها وأجدرها بالأداء التعبيري في سيرته الذاتية، لأن نوع الأسلوب يرتبط بالموضوع والفكرة، وطبيعة الموقف، وقد وفق الشيخ في كل ذلك : فكان الأسلوب المرسل الذي يعتمد على الوصف والحكاية بلسان المتكلم هو الأصل السائد المهيمن، ويظهر الأسلوب العلمي المباشر، بكلماته ذات المعاني والمدلولات المحددة في مقام تحليل المواقف، ومعالجة القضايا، ووضع الحلول. فإذا كان هناك مايؤثر الوجدان، ويوهج العاطفة، ويثير مكامن الشعور كان الأسلوب الأدبي هو المناسب الذي لايغنى عنه غيره.

وفي هذا كله يبقى مدار الأمر ــ كما يقول ابن قتيبة ــ على القطب، وهو العقل، وجودة القريحة، فإن القليل معهما بإذن الله كاف، والكثير مع غيرهما مقصر(٧٨).

■■■

وإذا كان بعضهم قد وصف الأسلوب بأنه الشخصية فإن الشيخ من أصدق الأمثلة على صحة هذه المقولة، إذ كان ينطلق فيما يقول ويكتب، وفي معاملاته وسلوكياته من إيمانه القوي بدينه، وأخذ نفسه بالأخلاق السامية، فعاش متحليا بما أوجبه ابن قتيبة على من يتصدى للكتابة بأن «يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب ــ قبل مجانبته اللحن وخطل القول ــ شنيع الكلام، ورفث المزح(٧٩).

ومن سمات أسلوب هذه السيرة الوضوح، فلا تقعر ولا التواء، ويكثر الترادف، والتكرار المعنوي، أي التعبير عن المعنى أو الفكرة الواحدة بأساليب متعددة، وذلك حرصا على تحقيق الوضوح من ناحية، وتأكيد المعنى وترسيخه في نفس المتلقي سامعا وقارئا من ناحية أخرى. وتكثر هذه السمة الأسلوبية ــ بصفة خاصة ــ في المحاضرات والرسائل. فمن رسالته لرئيسة الوزراء أنديرا غاندى «... إن النقطة الأولى التي أريد أن أثيرها هي أنه لاطريق أسلم، وأصلح، وأضمن لسلامة هذه البلاد، ضمانتها، وبقائها، واستحكامها، وأدائها لدورها الكبير الرائع.... إلخ»(٨٠).

ومن إحدى خطبه في نوفمبر ١٩٩٣ في جمع حاشد

بمدينة لكهنؤ:

«ويدل التاريخ على أن الظلم كان في بعض الأحيان السبب الرئيسي لانهيار المجتمعات، ولاندثار الإمبراطوريات، وانطفاء نورها، والقضاء على ماتكون فيها، من حضارة وثقافة، ومانشأ فيها من ثروة علمية وأدبية..»(٨١).

■■■

وفي المسيرة تكثر الشواهد إلى درجة الإغراق أحيانا: شواهد من القرآن الكريم(٨٢) والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة(٨٣) والشعر العربي (٨٤)، أما أكثر الشواهد على الإطلاق فمن شعر إقبال(٨٥) ولم ترد هذه الشواهد من قبيل التزين، ولكن لتقوية المعنى، والإقناع بالفكرة. وهو يجعل من أبيات إقبال ــ بخاصة ــ مايشبه «لحظة التنوير» تكون خاتمة لمشهد، أو تذييلا لفكرة :

فبعد حديث مفصل عن جلال الدين الرومي، يورد قول إقبال : (إن عيني مستنيرة من قبسه، وإن كأسي لمترعة من بحره)(٨٦) وبعد أن يعرِّض بدعوى القومية العربية، ويتحدث عن الإسلام؛ قومية وجنساً وديناً ودولةً، يورد قول إقبال. (لاوجود ولا اعتبار للعالم العربي بالحدود والثغور، وإنما وجوده واعتباره بالانتماء إلى محمد العربي صلى الله عليه وسلم)(٨٧).

■■■

والتصوير البياني في مسيرة الشيخ سهل المأخذ، قريب الخيال، لايسرف في التحليق والتهويم، ولكن من توفيقاته الجميلة الآسرة توظيفه «القصة الخيالية» بنجاح لخدمة فكره ودعوته : ففي مؤتمر «رسالة الإنسانية» الذي عقد بولاية «بهار» بالهند في ١٩٩٣/٦/٣٠، استهل خطبته بقصة، اقتبسها من إحدى رسائل الشيخ شرف الدين يحيى، خلاصتها : أن أحد الأثرياء كان له قصر شامخ على قمة جبل، وساعة احتضاره أوصى ابنه بأن يعدّل في القصر كما يشاء، ولكن عليه أن يبقي على شجرة ذات رائحة طيبة ــ عيّنها له أبوه ــ مهما أصابها من جفاف وذبول. ونمت أشجار حديقة القصر في الربيع، ولكن الذبول أصاب هذه الشجرة، فاقتلعها ورمى بها خارج القصر، وعندها دخلت حية من جحر، ولدغت الولد ومات. ولم يدرك الولد أن هذه الشجرة ــ زيادة على رائحتها الطيبة ــ كانت تمنع برائحتها الحيّات والثعابين من الاقتراب من القصر وحديقته.

ويربط الشيخ بين القصة والواقع المعيش في الهند، فيقول : إن بلدنا الهند في حديقته ثلاث شجرات، لو اقتلعت، ورمي بها كان الخراب والدمار، واستباحت ثعابين الفتنة بلدنا العظيم. وهذه الأشجار هي : شجرة اللاعنف، وشجرة العلمانية، وشجرة الديمقراطية(٨٨).

والقصة كانت ــ وما زالت ــ وسيلة فعالة من وسائل التربية والتعليم، والدعوة، وتوجيه الأفراد والشعوب؛ لأنها تكاد تكون الفن الوحيد الذي يجمع كل الناس على حبه واستساغته، مهما كان حظهم من الوعي والإدراك والثقافة. وفي القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف آيات بينات معجزات من أحسن القصص.

■■■

في المسيرة تكثر الشواهد إلى درجة الإغراق أحيانا:
شواهد من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية،
والأقوال المأثورة، والشعر العربي.

ونكتفى بما قدمنا من بعض ملامح الأداء التعبيري في سيرة الشيخ الجليل التي سماها «في مسيرة الحياة» وقد رأينا كيف كانت تمثيلا حيا لحياة شامخة لاتقاس بالسنين، ولكن بما قدم شيخنا من عطاء عظيم كبير : للكلمة والفكرة، والإسلام والمسلمين، والقيم الإنسانية العليا. يرحمه الله.

■■ المراجع والتعليقات

(١) انظر محمد عبدالغني حسن : التراجم والسير ٩.
(٢) انظر في تعريفها المفصل : د.حسين فوزى النجار، التاريخ والسير ١٤.
(٣) د.شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون : ١/ ٣٧٠.
(٤) نشرت هذه الترجمة في آخر المجلد السابع من تاريخه ــ طبعة بولاق ــ مصر ١٢٨٤ ــ ١٨٦٤، وانظر مصطفى نبيل : سير ذاتية عربية ١٥٥ ــ ٢٠١.
(٥) انظر شاكر مصطفى : مرجع سبق ١/ ٣٧٤.. ومصطفى نبيل السابق ٩٥ــ١١٧ وشوقي ضيف: الترجمة الشخصية ٩٤.ويوسف الشاروني : مجلة العربي : مارس ١٩٦٠. مقال بعنوان : الاعتبار أول كتاب يؤرخ فيه عربي لنفسه.
(٦) د.يحيى إبراهيم : الترجمة الذاتية ٣.
(٧) السابق ١٣.
(٨) ضيف : مرجع سبق ١٤.
(٩) انظر : ماهر حسن فهمي : السيرة تاريخ وفن ٢٤٤. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار كتاب (قصة حياتي) للطفي السيد سيرة ذاتية، مع أنه اهتم بالأحداث العامة، ولكن شخصيته واضحة في غمار الأحداث. أما كتاب أحمد شفيق (مذكراتي في نصف قرن) فهو أقرب إلى كتب التاريخ، لأن حضور الكاتب باهت فيه.
(١٠) أبوالحسن الندوي : في مسيرة الحياة ١/ ١٩.
(١١) انظر : السابق ١/ ١٩-٢٠.
(١٢) السابق ١/ ٢٥.
(١٣) السابق ٣/ ٥-٦. كتب الشيخ سيرته الذاتية في خمسة أجزاء بالأوردية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى العربية في ثلاثة : ضم الأول الجزءين الأول والثاني. وجاء الثاني ترجمة للثالث، أما الجزء الثالث فترجمة للرابع والخامس. وقام بالترجمة إلى العربية الأستاذ سلمان الندوي، ماعدا الجزءين الرابع والخامس فقد ترجمهما إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الحسني.
(١٤) السابق ١/ ٢٨.
(١٥) انظر السابق ٣/ ٣٨٠.
(١٦) انظر قصة هذه القوانين، وموقف الشيخ أبي الحسن منها، وجهوده في سبيل الحفاظ على قانون الأحوال الشخصية في صورته الإسلامية : في مسيرة الحياة ٢/ ٨٥-١١٥.
(١٧) د.يوسف القرضاوي : رباني هذه الأمة : أبوالحسن الندوي ١٠.
(١٨) ففي مقام حديثه عن رحلته إلى لبنان وتركيا سنة ١٩٥١، يحيل من أراد قولا مفصلا فيهما على كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي» انظر : المسيرة هامش ١/ ٢٦٢. وعن رحلته سنة ١٩٧٣ إلى أفغانستان، ايران ولبنان وشرق الأردن والشام والعراق، يحيل على كتابه «من نهر كابل إلى نهر اليرموك» انظر السابق ١/ ٣٥٠.
(١٩) الندوي : مذكرات سائح في الشرق العربي ٥ ــ نظرات في الأدب ٦٥.
(٢٠) الغزالي : المنقذ من الضلال ١٤٣. وارجع لمصطفى نبيل : م.س : ٦٢-٧٦.
(٢١) انظر : جابر قميحة : منهج العقاد في التراجم الأدبية ١٥١. وللتفصيل ارجع إلى ص ١٥١-١٦٧.
(٢٢) الندوي : أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين ٩١.
(٢٣) الشيخ علي الطنطاوي من تقديمه للمسيرة ١/ ١٥.
(٢٤) الطنطاوي : السابق ١/ ٩.
(٢٥) د.مجدى وهبة : معجم مصطلحات الأدب ٣١١.
(٢٦) السابق ١١٠.
(٢٧) السابق ٤٧٢.
(٢٨) السابق ٨٥.
(٢٩) نبادر فنشير هنا إلى أن الشيخ في تسجيله وقائع حياته، وأحداث رحلاته، ومايرتجله فيها من محاضرات كان يعتمد على ذاكرته غالبا، وعلى ماتسجله بعض الأشرطة نادرا، وكذلك على مايكتبه فيها بعض مرافقيه مثل ابن أخته محمد الرابع الندوي، وقد يضم إليها بعض الآيات، والأحاديث وبعض أقوال المفسرين. [انظر لأبي الحسن : نفحات الإيمان ١٤- أسبوعان في المغرب الأقصى ٥- من نهر كابل إلى نهر اليرموك٤].
(٣٠) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ١٠٢.
(٣١) لم تظهر هذه المخالفة إلا مرة واحدة فاشترك التاريخ في العنوان (انظر عنوان الفصل ١٣-١/ ٢٤٧ من المسيرة).
(٣٢) السابق. الفصل السادس ٢/ ١٣١.
(٣٣) السابق ١/ ١١١.
(٣٤) السابق ١/ ١١٤.
(٣٥) من تقديم على الطنطاوي ١/ ١١٧.
(٣٦) المسيرة السابق ١/ ٨٧.
(٣٧) السابق ١/ ٨٨.
(٣٨) السابق ١/ ١١٧.
(٣٩) السابق ١/ ١٥٧.
(٤٠) من تقديم الطنطاوي ١/ ١٧.
(٤١) المسيرة ١/ ١٨٨.

(٤٢) المسيرة ٢/٦٥.
(٤٣) المسيرة ١/١١٣ ــ وانظر كذلك ١/١٧٥.
(٤٤) المسيرة ١/١١٥.
(٤٥) المسيرة ١/٢٧٩.
(٤٦) المسيرة ١/١٣٣.
(٤٧) المسيرة ٢/٦٣.
(٤٨) المسيرة ١/٧٤.
(٤٩) المسيرة ١/١١٥.
(٥٠) المسيرة ١/١٢٨.
(٥١) انظر المسيرة ١/١٥٤.
(٥٢) المسيرة ١/١٥٥.
(٥٣) المسيرة ١/١٧٤.
(٥٤) المسيرة ١/١٨٢.
(٥٥) المسيرة ١،٢٥١ ــ وانظر كذلك ١/٢٠٢.
(٥٦) المسيرة ١/٢٤٧.
(٥٧) المسيرة ١/٢٤٨.
(٥٨) المسيرة ٣/٣٠٠.
(٥٩) المسيرة ٣/٣٠١.
(٦٠) المسيرة ١/٢٦٢. وانظر كذلك ١/٢٨١، ٢٨٥، وكتابه : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١١٠ ــ ١١٨.
(٦١) المسيرة ١/٤٨.
(٦٢) المسيرة ١/١٦١.
(٦٣) المسيرة ١/١٦٤.
(٦٤) المسيرة ١/١٦٥.
(٦٥) يرى «تين» أن الشخصية ثمرة من ثمرات البيئة، وأن الحياة العقلية لايكونها ويشكلها إلا : الجنس والبيئة الطبيعية والاجتماعية والزمن [انظر محمد مندور : النقد والنقاد المعاصرون ١٤٩ ــ أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ١١٩].
(٦٦) المسيرة ١/٣٢.
(٦٧) انظر المسيرة ١/٣٣-٤٠.
(٦٨) المسيرة ١/٥٦.
(٦٩) المسيرة ١/١١١.
(٧٠) انظر رسالته إلى أنديرا غاندى رئيسة الوزراء ورئيسة الحزب الحاكم، وفيها ينذرها ويحذرها من خطورة الحركة الهندوسية على المسلمين وعلى الهند كلها، ويأخذ عليها ليونة سياستها وضعفها. [المسيرة ٢/٦٣-٦٨] وكذلك رسالته إلى راجيف غاندي بشان خطر القانون المدني الموحد على المسلمين. [المسيرة ٢/١٠٥-١٠٧].

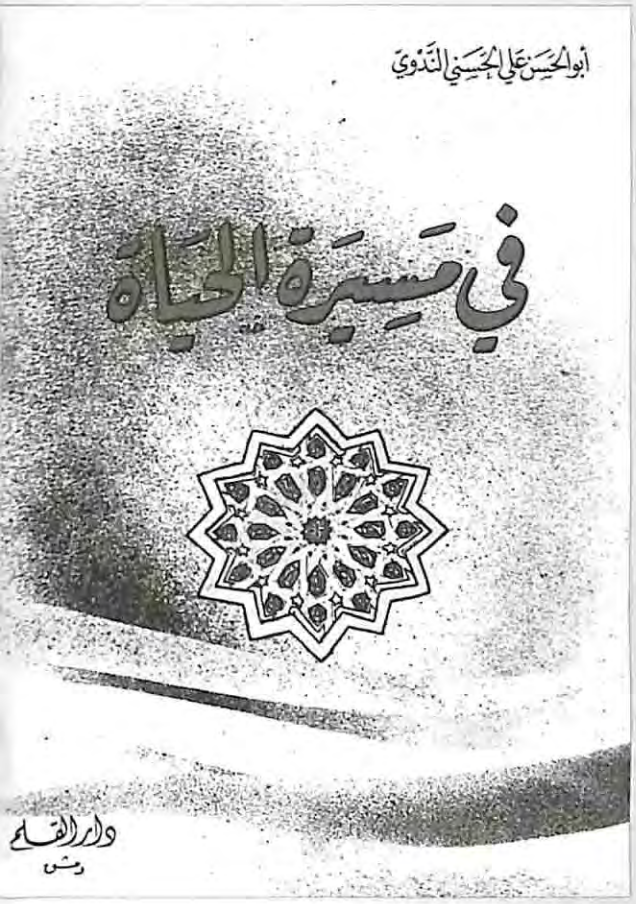

(٧١) انظر المسيرة ٢/١٩، ١١٧، ١٥٩، ٢٠٧، ٣/١٣٤، ٢٥٠.
(٧٢) انظر المسيرة : ١/٢٤٠، وكذلك ٦٧، ١٥٨.
(٧٣) وهذه خلاصة تعريف تولستوى للفن، وهو قريب من تعريف وردزورث للشعر. انظر : هربرت ريد : معنى الفن ١٦١ ــ ١٦٢.
(٧٤) انظر : الندوي : نظرات في الأدب ٣١.
(٧٥) المسيرة ١/٢١٠.
(٧٦) المسيرة ١/٦٦.
(٧٧) المسيرة ١/٧٠.
(٧٨) ابن قتيبة : أدب الكاتب ١٤.
(٧٩) السابق ٢٧.
(٨٠) المسيرة ٢/٦٣.
(٨١) المسيرة ٣/١٩٥.
(٨٢) انظر المسيرة ١/٣٨٩، ٢/٣٦، ٤٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٦، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٤، ٢١٠، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧١، ٣/٧٦، ١٣٨، ١٦٢.
(٨٣) انظر المسيرة ١/٣٣٩، ٣٨٦، ١/١٥٤.

(٨٤) انظر المسيرة ١/٣٨٦، ٣/٢٣٠.
(٨٥) انظر المسيرة ١/٦٧، ٢/٣٦، ٢/١١٩، ٣/٧٩، ٣/١١٩.
(٨٦) المسيرة ٢/١١٩.
(٨٧) المسيرة ٣/١١٩.
(٨٨) انظر المسيرة ٣/٢٢٧-٢٢٩.

■■ مَسْرد المراجع:

١ ــ أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين : أبوالحسن الندوي مؤسسة الرسالة ــ بيروت ط٢ ١٤٠٨ ــ ١٩٨٧.

٢ ــ أدب الكاتب : ابن قتيبة : أبومحمد عبدالله بن مسلم ــ تحقيق محمد الدالي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ط٢ ـ ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥.

٣ ــ أسبوعان في المغرب الأقصى : أبوالحسن الندوي مؤسسة الرسالة ــ بيروت ط٢ ـ ١٤٠٩ ــ ١٩٨٨.

٤ ــ الاعتبار أول كتاب يؤرخ فيه عربي لنفسه : يوسف الشاروني. دراسة بمجلة العربي الكويتية. مارس ١٩٦٠.

٥ ــ التاريخ العربي والمؤرخون : شاكر مصطفى ـ الجزء الأول ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ط٣ ــ ١٩٨٣.

٦ ــ التاريخ والسير : د.حسين فوزي النجار ــ دار القلم ــ القاهرة ١٩٦٤.

٧ ــ التراجم والسير : محمد عبدالغني حسن ــ دار المعارف ــ القاهرة ط٧ ــ ١٩٦٨.

٨ ــ الترجمة الذاتية في الأدب العربي : د.يحيى إبراهيم عبدالدايم ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٧٥.

٩ ــ الترجمة الشخصية : د.شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة ١٩٥٦.

١٠ ــ رباني هذه الأمة : أبوالحسن الندوي. للدكتور يوسف القرضاوي ــ دار الكلمة ــ المنصورة ــ مصر ــ ٢٠٠٠.

١١ ــ السيرة تاريخ وفن. د.ماهر حسن فهمي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط١ ١٩٧٠.

١٢ ــ سير ذاتية عربية : مصطفى نبيل ــ الهيئة المصرية للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٩٩.

١٣ ــ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية : أبوالحسن الندوي ـ دار القلم ــ الكويت ط٥ ــ ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥.

١٤ ــ علم التاريخ عند المسلمين : فرانز روزنتال ــ ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ط٢ ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣.

١٥ ــ في مسيرة الحياة (١) أبوالحسن الندوي ــ دار القلم ــ دمشق ١٩٨٧.

١٦ ــ في مسيرة الحياة (٢) أبوالحسن الندوي ــ دار القلم ــ دمشق ط١ ١٤١٠ ــ ١٩٩٠.

١٧ ــ في مسيرة الحياة (٣) أبوالحسن الندوي ــ دار القلم ــ دمشق ــ ط١ ١٤١٨ ــ ١٩٩٨.

١٨ ــ قصة حياتي : أحمد لطفي السيد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٩٨.

١٩ ــ مذكرات سائح في الشرق العربي : أبوالحسن الندوي مؤسسة الرسالة ــ بيروت. ط٣ ـ ١٣٩٨ ــ ١٩٧٨.

٢٠ ــ مذكراتي في نصف قرن : أحمد شفيق ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٨.

٢١ ــ معجم مصطلحات الأدب : د.مجدي وهبة ـ مكتبة لبنان ــ بيروت ١٩٧٤.

٢٢ ــ معنى الفن : هربرت ريد ــ ترجمة سامي خشبة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٨.

٢٣ ــ مقدمة لدراسة بلاغة العرب : أحمد ضيف ـ مطبعة السفير ــ القاهرة ــ ١٩٢١.

٢٤ ــ المنقذ من الضلال : أبوحامد الغزالي. مكتبة الأنجلو القاهرة. (د.ت).

٢٥ ــ من نهر كابل إلى نهر اليرموك : أبوالحسن الندوي ـ دار الإيمان ــ بيروت ــ ط٢ ـ ١٣٩٦ ــ ١٩٧٦.

٢٦ ــ منهج العقاد في التراجم الأدبية : د.جابر قميحة ـ مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ــ ط١ ـ ١٩٨٠.

٢٧ ــ نظرات في الأدب : أبوالحسن الندوي ــ دار البشير ــ عمان ـ الأردن ط١ ــ ١٤١١ ــ ١٩٩٠.

٢٨ ــ نفحات الإيمان بين صنعاء وعُمان : أبوالحسن الندوي مؤسسة الرسالة .ط١ ـ ١٤٠٦ ــ ١٩٨٦.

٢٩ ــ النقد والنقاد المعاصرون : د.محمد مندور ــ مطبعة نهضة مصر. القاهرة (د.ت).